يوم الإنتخاب

استمر الضرام بين خالد الصياد وكايد وديب، واشتد بينهما الكر والفر كلاهما نكل علـى صاحبه شمس لايلين، صراع بين المبادئ وسلطان المال فأيهما يجلي في حومة الميـدان وأيهمـا يبرز ويكون له السيادة؟

كان خالد لبق الشمائل، نبيل الخلق، شريف النفس لايعرف الا الخطوط المـستقيمة، ولـم يتعلم أبدا فن التكالب والمراءاة والكذب والنفاق، ولاتمريغ الجباه والنفخ في بوق كـل حـالكم، ولا الرضوخ لأية سياسة محلية أو خارجية لا تستهدف مصلحة الجماهير الواسعة من شعب لبنـان.. أنزف ماله القليل في المعركة الانتخابية، ولم يكن للفلسطينين الذين يدعم قضيتهم حول ولاقوة بعد طردهم من بيروت، فعبد الرحمن الذي كان يدعمه ويجمع حوله نخبة ممتازة من المثقفين تـؤمن بوحدة لبنان، والوفاق الوطني بين طوائفها الثمانية عشرة، سافر الى باريس بعد تدمير بيتـه فـي عين الحلوة، ومقتل زوجته واصابة ابنه في الحادث الأليم..

أما كايد ديب فكانت أموال المافيا العالمية تدعمه لزراعته الحشيش وتسويقه، ولقد استطاع أن ينقل جميع أبناء قريته الحدودية بالشاحنات التي يملكها الى الجنوب للتصويت له، واستفاد مـن الحملة ضد الفلسطينيين المتواجدين في الجنوب ومن نزع الأسلحة من مخيمـاتهم، فـي جعلهـم بلاوزن في دعم خالد والانتصار له حتى إعلاميا.. فالمجلة موصدة، والبلد محتل، والشعب غائب، والحق ضائع، وقد فقدت لبنان ارادتها الحرة وديموقراطيتها واستقلالها، وأصبحت بيدقا تتلاعـب بها قوى عمياء..

جلست نبيلة وجهينة التي عادت الى لبنان لتغطي الأحداث الجارية بأعصاب مشدودة الى التلفاز حتى ساعة متأخرة من الليل تنتظران النتائج التي أسفرت عن فوز كايد. وخـذلان خالـد، وقيل حينذاك أن كايد زور الانتخابات ورشى الكثيرين مـن الزعمـاء الـذين تتفـق مـصالحهم ومصالحه. وانتصر الباطل فإذا الجميع أيد مصفقة وأكف مهنئة والسنة مزغردة.

عاد خالد الى بيته جريح النفس، جهد الجسم كاد يفقد الايمان بقيم الخير في واقع الحياة.. إن لها منطقا غير منطقه. شعت الحقيقة الرهيبة لعينيه، وران عليه الأمر فما يطيقه، ودجا الكـون لناظريه، وارتمى على الأريكة ساهما يرنق النظر بالأفق البعيد فلايـرى الا ظـلام المـستقبل، والأنوار القليلة الباهتة في بحر الظلام.

اقتربت منه أخته واحتضنت رأسه:

-خالد، والله ستنتصر يوما، وليس على الذهب غضاضة أن ينفق الزائف يوما.. فلاتـأس ياأخي، إن صيدا لم تخذلك، فأنت ابنها البار، وليست هذه المعركة الأخيرة مع الأشرار.

-أعلم ياسمية، ولكنني أتألم لأنني أرى هذا الشعب الصغير الأبي سيرزح طـويلا تحـت عبئه الثقيل، وأن الأدعياء الذين لايهمهم مصلحته سيبقون سادة الموقف زمنا ليس بالقصير.

كان خالد حين رشح نفسه للنيابة يتبنى نفس مشروع جلال عباد، وهو تحويل الحاصباني الى الليطاني، والقيام بسلسلة مشاريع على الليطاني لتوليد الكهرباء وارسال كمية من الميـاه الـى سلسلة خزانات لارواء السفوح الغربية لجبل الشيخ، وارواء منطقة القرعـون وجنـوبي البقـاع، وارواء جبل عامل، واقتناص عيون مرج عيون ومنعها من السيلان لأرض العدو واقامة سـدود لحصر مياه السيول والاستفادة منها في ري الجنوب، أي باختصار أنه كان يؤمن بنفس رؤية عبد الرحمن الذي كان يحذر دوما في مقالاته بأن المعركة المقبلة مع العدو هي معركة ميـاه، فكيـف يحقق هذا الحلم والجنوب محتل؟ قال بصوت خافت كأنما يحدث نفسه:

-كان الفوز قاب قوسين مني، ولكن هذا الجاهل الذي لم يكن سوى موظف صـغير فـي مصلحة الري، ويقول عنه الفلسطينيون أن ثروته من زراعة الحشيش وتهريبـه عبـر الحـدود الجنوبية، استطاع أن يهزمني بنقل قرية بكاملها في شاحنات التهريب التي يملكها، وتبرع للجميـع أن يصدر لهم هوياتهم وهويات نسائهم وذويهم على حسابه، وأن يأكلوا ويشربوا في المطاعم على حسابه، ودفع لشركة السيارات في بيروت مبلغا مغريا، ونقل كل من يؤيده الى مركز الانتخـاب في صيدا. قلت:

-لاعجب أن يخسر خالد، انه واحد ممن يقع عليهم اللوم، لمساندته القـضية الفلـسطينية. حتى عمتي أم ابراهيم التي تعرف عن علاقة غانم بكايد ديب تلومه لأنه يتبنى قضية خاسرة خانها قادتها قبل الآخرين.

اصفر وجه جهينة، وأحسست أنني جرحتها دون قصد، فأسرعت بقولي:

-أعني هذا الصراع القائم بين الفصائل الفلسطينية التي أدت الى تمزقهم. لم يستطع عبـد الرحمن أن يوحد لهم راية. كل فئة تتبع من يمولها، وتفسد خطط غيرها ناهيك عن الأخطاء التي وقعوا فيها حين أصابهم الغرور وظنوا أنهم بحملهم البندقية أصبحو سادة لبنان. أثـاروا متاعـب كثيرة لشعب لبنان ونسوا أنهم يقومون من بلد ليس بلادهم، وأعداؤهم كثر في ، وذوي الأغـراض والمصالح أكثر.. قالت جهينة بصوت خفيض:

-الآن خرجوا من بيروت، ولنر ان كان اللبنانين سيكون وضعهم أفضل!

-لا أعلم ذلك تمام العلم، كان بامكان البندقية الفلسطينية كطليعة مقاتلة أن تحمي مـصال الأمة العربية بأسرها وليس فقط لبنان، لو أن في الوطن العربي وعي أكثر وأنانيـة أقـل ، لأن جميعها مستهدفة من العدو بطرق مختلفة: فلسطين كقاعـدة عـسكرية للإمبرياليـة الأميركيـة، والجولان كمنابع للمياه، والسعودية ودول للخليج للنفط، والعـراق الـى جانـب نفطـه للتطـور التكنولوجي فيه، ومصرلوزنها الثقافي والسكاني ولتطورها الصناعي.

ما عرفت بتقصير زوجي في دعم خالد حتى زارتني عمتي أم ابراهيم وأخبرتني بأن زوجي وعد أن يدعمه ماليا بعد أن يفتتح المصرف في بيروت. نمت في تلك الليلة محبطة الفؤاد واستيقظت على حلم أقض مضجعي، وهمست لنفسي "رب أعطني القوة لأستمر في موقفي الثابت من أحداث لبنان، وثبت فؤادي فلا يمل مع الهوى، وهبني الشجاعة لأحمي الكيانين الصغيرين من الأذى. أتراني كنت متأثرة من حديث عمتي أم ابراهيم عن حفيدها الذي كانت صحته تنهار ولم ينفع معه العلاج النفسي ولا الدواء، ويصرخ في الليل ويقوم من فراشه مذعورا ليحتمي في الفراش بين أمه وأبيه حيث يبول في فراشهما! صحت في حلمي "رب أنقذ أطفال لبنان، انهم مستقبل هذا البلد الصغير، انهم في خطر لا أعرف مداه" لقد تعقد هذا الجيل من الأطفال بما يشاهد من العنف على التلفزيون حتى باتت عودته الى التوازن النفسي شبه مستحيلة!

ما كانت أحداث صبرا وشاتيلا قد وقعت بعد، ولكنني كنت محاطة بنذرها، مثقلة القلب بما يمكن أن تسفر عنه الحرب الأهلية في لبنان، وجلاء المنظمة عن بيروت، وانتزاع أسلحة الفلسطينيين من المخيمات، وابعاد ريمون الى ايران، وسفر زوجي الى نيويورك ووعوده التي لم يف بها لأحد، وفشل خالد الذي لم يلق العون منه، وأخيرا نجاح غانم كنائب عن ريف بيروت، وكايد ديب عن صيدا..

* * *